إيمان سحرة فرعون
دراسة استقرائية تحليلية عقدية

The Faith of Pharaoh's Magicians

A Creedal Study Employing Inductive and Analytical Methods

إعداد

Prepared by

د. عبد الله بن سليمان بن عبد الله الشايع

أستاذ العقيدة المشارك بقسم الدراسات الإسلامية

كلية التربية - جامعة الملك سعود

Dr. Abdullah bin Sulaiman bin Abdullah Al-Shaya.

Associate Professor of Creed (Aqeedah)

in the Department of Islamic Studies, College

of Education, King Saud University

alshaye@ksu.edu.sa

الملخص

يتناول البحث إيمان سحرة فرعون من خلال ثلاثة مباحث، المبحث الأول عن حالهم قبل الإيمان، وطمعهم في المال والقرب من فرعون إن غلبوا موسى عليه السلام، وكيف تباهوا بسحرهم، وجاءوا بسحر عظيم، واغتروا بكثرتهم، وتحدوا موسى عليه السلام، وتفاخروا بعزة فرعون، والمبحث الثاني عن حالهم بعد الإيمان، حيث آمنوا لما رأوا معجزة موسى عليه السلام حين انقلبت عصاه إلى حية فأكلت حبالهم وعصيهم، ثم سجدوا لله تعالى، وأعلنوا التوحيد، وتبرؤوا مما كان عليه من السحر والشرك، وهددهم فرعون فلم يبالوا بتهديده، وسألوا الله الصبر والوفاة على الإسلام، وأما المبحث الثالث ففي ذكر بعض الفوائد المستنبطة من قصة إيمان السحرة، يلي ذلك خاتمة البحث وفيها أهم النتائج والتوصيات، ثم قائمة بالمصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: الإيمان، موسى، الكفر، السحر، فرعون، سحرة فرعون.

summary :

This research discusses the faith of Pharaoh's sorcerers through three main sections (chapters). The first section addresses their state before embracing faith, their greed for wealth, and their desire for proximity to Pharaoh if they were to defeat Moses (peace be upon him). It explores how they boasted of their sorcery, brought forth a great spectacle of magic, were deceived by their large numbers, challenged Moses (peace be upon him), and vaunted the might of Pharaoh. The second section examines their state after embracing faith. They believed when they witnessed the miracle of Moses (peace be upon him) – when his staff transformed into a serpent and consumed their ropes and staffs. Subsequently, they prostrated to God Almighty, declared Monotheism (Tawhid), and disavowed the sorcery and polytheism (Shirk) they had practiced. Pharaoh threatened them, but they remained unfazed by his threats, and they prayed to Allah for patience and to die upon the path of Islam. The third section is dedicated to mentioning some of the benefits and lessons deduced from the story of the sorcerers' faith. This is followed by the research conclusion, which includes the most important findings and recommendations, and finally, a list of sources and references.

Keywords: Faith (Iman), Moses, Disbelief (Kufr), Sorcery/Magic, Pharaoh, Pharaoh's Sorcerers.

Journal of Islamic Sciences
Vol.2 | Issue 41
ISSN: 2225-9732
December 2025
مجلة العلوم الإسلامية
المجلد 2 | العدد 41
www.isscj.edu.iq

المقدمة

الحمد الله الذي لا رب لنا غيره، ولا معبود لنا سواه، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على البشير النذير، والسراج المنير، من بعثه الله رحمة للعالمين، فهدى به من الضلال، وبصر به من العمى، وفتح به آذى صماً، وأعينا عمياً، وقلوباً غلفاً، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، أنوار الهدى، ومصابيح الدجى، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ى.

أما بعد: ففي القرآن من قصص الأنبياء وأتباعهم ما فيه تذكرة وعبرة، وغايات وحكمة، قال جل شأنه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَـٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، وقال في آخر سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

فالقرآن كتاب هداية، وفيما ذكره الله سبحانه وتعالى من القصص مثال حي واقعي لمعاني الخير والشر، ومعالم التوحيد وصور الشرك، وصراع الحق والباطل، ومعاني الإيمان والتقوى، وأبواب البر والإحسان، ومسالك وطرق الشيطان، فيعيش القارئ للقرآن تلك المعاني من خلال تلك القصص، وتتجسد له واقعا ملموسا كأنه يعيشه ويشاهده، ويدرك كثيرا من معانيها العالم والعامي، والكبير والصغير، وصدق الله: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

ومن تلك القصص قصة سحرة فرعون، فالسحر من أخس الأعمال، فبه استخفوا الناس واسترهبوهم، وصاروا مطية لفرعون يحقق بهم مطامعه، وينال من خلالهم مراده، فهو بحاجة إليهم كما أنهم بحاجة إليه، وقد لجأ إليهم لينصروه على موسى عليه السلام، وجاءوا إليه طامعين في نواله، راجين القرب منه، وقد تعلقت قلوبهم بالدنيا، وحين وعظهم موسى عليه السلام وخوفهم بالله تراجعوا الكلام فيما بينهم، ثم أجمعوا على الانتصار لما هم فيه: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ * قَالُوا إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦١- ٦٤].

ومع رغبهم ورهبهم من فرعون، وإجماع كلمتهم على مواجهة موسى عليه السلام، إلا أنهم لما رأوا علو الحق علو بإيمانهم، وتغيرت طباعهم، وسمت هممهم، فتطلعوا للآخرة، وثبتوا كالجبال الشامخة، فلم يأبهوا بتهديد فرعون ولا جبروته، وبذلوا أرواحهم رخيصة لله تعالى، ونظروا إلى الدنيا نظرة المطلق لها ثلاثا، وتطلعوا بقلوبهم إلى خالقهم وبارئهم ليغفر لهم خطاياهم وما أكرهوا عليه من السحر، وتعلقت آمالهم بجنة عرضها السموات والأرض.

وقد طمعوا في مغفرة الله تعالى لهم أَنْ كانوا أول المؤمنين، فآمنوا حين رأوا آية موسى عليه السلام، وتيقنوا صدقه، وعلموا أن ما جاء به من عند الله تعالى، فآمنوا بالله رب العالمين، وأعلنوا التوحيد، وقلعوا جذور الشرك من قلوبهم.

وهذا الموقف الصلب، والتضحية بالنفس، والثبات والقوة، تدل على وجود مؤثر قوي بدل تلك الحال، وبلغ بهم إلى هذه المنزلة، وليس إلا الإيمان بالله تعالى، كما سيأتي في تفصيل القصة بإذن الله تعالى.

وهذا الأثر القوي للإيمان لا يختص بسحرة فرعون، بل هو حال كثير ممن آمنوا فتبدلت حالهم إلى نقيض ما كانوا عليه حال الشرك، ومن كانوا على ضلال فتغيرت حياتهم كلها بعد توبتهم وإنابتهم، وفي النصوص شواهد أخرى؛ كقصة أصحاب الأخدود، ومؤمن آل فرعون، والمهاجرين والأنصار، وفي السيرة من قصص الصحابة رضي الله عنهم ومواقفهم ما يعجب له كل من قرأ سيرتهم، كيف تبدل بغضهم حبا، وحربهم للدين نصرة له، وطمعهم في الدنيا زهدا فيها.

وإذا كان السحر من أخس الأعمال فإنه لم يَحُل دون بلوغ السحرة بعد إيمانهم هذه المرتبة العالية، والمنزلة الرفيعة، وكأن ذواتهم قد تبدلت، وإذا صلح القلب صلح الجسد كله، وإذا فسد فلا صلاح له، ولا خير يرجى معه.

ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث بدراسة قصة سحرة فرعون، وكيف غير الإيمان حياتهم، ومقارنة ذلك بمن أسلم ولم يدخل الإيمان في قلبه، وأهمية استلهام ذلك من خلال هذا القصة وما ماثلها في الدعوة إلى الله تعالى، وتربية النشء وإصلاح المجتمعات، وقد جاء بعنوان: «إيمان سحرة فرعون – دراسة استقرائية تحليلية عقدية».

مشكلة البحث:

تتباين التصورات عن أثر الإيمان على صاحبه تبعاً للتفاوت بين الأفراد في العلم الشرعي، وفي بيئاتهم التي تؤثر على تصوراتهم، ومن هنا تظهر أهمية العناية بالأمثلة الواقعية لمن بلغوا مرتبة عالية في الإيمان؛ إذ بقدر إيمانهم تصلح أعمالهم، وتعظم تضحياتهم، ويستقيم سلوكهم، ويزداد

عطاؤهم، وقصة «إيمان سحرة فرعون» مثال يحتذى ويقاس عليه، فبالإيمان يتغير أعتى الناس، وتتغير أصعب الطباع، وتصلح المجتمعات والأفراد، ويحصن النشء من الفتن والمدلهمات.

أهمية البحث

١- تعلقه بالقرآن الكريم، حيث ذكرت قصة إيمان سحرة فرعون مفصلة في أربع سور.

٢- حاجة الأمة إلى إبراز القدوات الصادقة، لتكون مثالا يحتذى ويقاس عليه ويقتدى به.

٣- قوة تأثير القصص في تقويم السلوك، وإصلاح العقائد، وإمكانية التغيير، والإصلاح.

أهداف البحث

١- تجلية المعاني الإيمانية في قصة إيمان سحرة فرعون كما ذكرها الله تعالى في كتابه.

٢- ذكر العوامل المؤثرة في إيمان السحرة، ومبادرتهم بالسجود والصدع بالتوحيد ورفض الشرك والظلم.

٣- إبراز أهمية التربية الإيمانية في إصلاح المجتمعات، وتربية النشء، وتقويم السلوك.

أسئلة البحث

١- ما المعاني الإيمانية في قصة إيمان سحرة فرعون كما ذكرها الله تعالى في كتابه؟

٢- ما العوامل المؤثرة في إيمان سحرة فرعون، ومبادرتهم للسجود والصدع بالتوحيد ورفض الشرك والظلم.

٣- ما أهمية التربية الإيمانية لإصلاح الفرد والمجتمع، ولتقويم السلوك؟

الدراسات السابقة

من خلال البحث في قوائم الأبحاث الأكاديمية والرسائل الجامعية في الجامعات السعودية، وفي غيرها من خلال محركات البحث لم أجد دراسة متخصصة موضوعية عقدية في قصة «إيمان سحرة فرعون»، وإن كانت كتب التفسير لا تخلو من بيانها وبيان معانيها عند شرح الآيات الواردة في سورة الأعراف ويونس وطه والشعراء، لكن بحاجة إلى جمع ما تفرق فيها؛ إذ لكل كتاب تفسير منهجه وطريقته، وتحفل كثير من كتب التفسير بفوائد لا توجد فيها غيرها، مما يتطلب جمعها ودراستها دراسة موضوعية، واستلهام الدروس والعبر منها.

وأما الرسائل في الإيمان أو السحر، أو آيات الأنبياء، ونحوها من موضوعات العقيدة فهذه أكثر من أن تحصر، لكنها أعم من موضوع البحث، ولم تتناول كثيرا من تفاصيل القصة التي ذكرها الله تعالى في كتابه بعبارة موجزة تحمل في طياتها معان كثيرة واسعة.

والغالب على الكتب التي تناولت القصة ككتب التفسير وغيرها تناولها ببيان الألفاظ الواردة

في القرآن، والعناية بالجانب التفسيري أو السردي لقصة السحرة، أو البحث في موضوع محدد كآيات الأنبياء عليهم السلام، بينما هذه الدراسة تعنى بالاستقراء للقصة، والتحليل لأحداثها، وكيفية توظيفها في التربية والدعوة والتعليم.

وقد جاء هذا البحث في تمهيد، وثلاثة مطالب، وخاتمة.

أما المقدمة ففيها إيجاز لفكرة البحث، وبيان لمشكلته، وأهميته، وأهدافه.

وأما المطالب فعلى النحو التالي:

المطلب الأول: حال السحرة قبل إيمانهم.

المطلب الثاني: إيمان السحرة بالله تعالى وثباتهم على الحق.

المطلب الثالث: الفوائد المستنبطة من قصة إيمان سحرة فرعون.

ثم الخاتمة، وفيها أبرز النتائج وأهم التوصيات.

المصادر والمراجع .

والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

المبحث الأول: حال السحرة قبل إيمانهم

ذكر الله تعالى قصة موسى في القرآن في مواضع كثيرة، وتكرر اسم موسى عليه السلام ١٣٦ مرة؛ ولذا سيقتصر البحث عن حال السحرة قبل إيمانهم، وعن أثر الإيمان عليهم بعد توبتهم ورجوعهم للحق.

وفي قصة موسى عليه السلام من البسط والتفصيل ما لم يذكره في غيرها؛ لأن جهل قومه أعظم وأفحش من جهل سائر الأقوام ولهذا كانت معجزاته أقوى من معجزات متقدميه من الأنبياء(١).

وقد أشار على فرعون الملأ من قومه بأن يجمع السحرة من أنحاء البلاد كلها: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١١ - ١١٢] «يريد: في مدائن صعيد مصر رجالا يحشرون إليك من فيها من السحرة، وكان رؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد»(٢)، والغرض من ذلك المكاثرة والمغالبة: «أي: كاثره بالسحرة، لعلك أن تجد في السحرة من يأتي بمثل ما جاء به»(٣).

(١) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (٣/ ٢٩٥).

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي (٢/ ٣٩٤).

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٠/٣٥٤).

وفي هذا دلالة على أثر الصاحب على جليسه، فملأ فرعون أشاروا عليه بالإرجاء ولم يشيروا بالقتل؛ لأنه إن قتله دخلت على الناس شبهة، فأرادوا أن يغلبه بالحجة[١]، والملأ يراد بهم الأشراف أو الرؤساء ونحوهم، وهم المليؤون بما يراد منهم، أو تملأ النفوس هيبتهم، أو يملؤون صدور المجالس[٢].

وآية الأعراف قرئت على الوجهين: ﴿سَاحِرٍ﴾ و ﴿سَحَّارٍ﴾، وكذا آية يونس، وأما آية الشعراء فلا خلاف أنها ﴿سَحَّارٍ﴾، قال تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٧][٣]، والفرق بينهما: أن الساحر يَعلَم السحر ولا يُعلِّمه، ويكون سحرُه في وقتٍ دون وقت، وأما السَحَّار فيَعلَم السحرَ ويُعلِّمه، ويُديمُ السحر[٤].

فرؤساء السحرة أقواهم تمكنا فيه، وقد جمعهم من المدائن كلها، وجاءت روايات كثيرة في بيان عددهم، فقيل سبعين، وقيل خمسة عشر ألفا، وقيل: سبعين ألفا، وقيل ثمانين ألفا، وقيل غير ذلك[٥]، وقد ذكر في زاد المسير ثلاثة عشر قولا[٦]، وأورد غيره أقوالا أخرى غير ما ذكره حتى قيل إنهم تسعمائة ألف[٧] وهذه الأقوال «ليس لها سند يوقف عنده»[٨]، وهي من الإسرائيليات[٩]، وليس في الآية ما يدل على الكيفية والمقدار والعدد[١٠].

والحاصل من ذلك كثرة عددهم، ومع كل واحد منهم حبله وعصاه، ولذا لما ألقوها «إذا هي حيات كأمثال الجبال، قد ملأت الوادي يركبُ بعضها بعضًا»، فكان أول ما اختطفوا بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد ذلك، ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧][١١].

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢/ ٤٣٨).
(٢) ينظر: تفسير القرآن للعز بن عبد السلام (١/ ٤٩٧).
(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٢/ ١٤٣).
(٤) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي (١٢/ ٤٦٤).
(٥) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٠/٣٥٤-٣٥٦)، (١٠/٣٥٨)،
(٦) ينظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٢/١٤٣).
(٧) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢/٤٣٨)، الجامع لأحكام القرآن (٧/٢٥٨)، (١١/٢١٤).
(٨) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢/٤٣٨)، وينظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي (٣/٦٣).
(٩) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (٤/٥٤٧).
(١٠) ينظر: التفسير الكبير للرازي (١٤/٣٣٦).
(١١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٠/٣٥٧).

ومما ورد في كتب التفسير «أنهم جلبوا ثلاثمائة وستين بعيرا موقرة بالحبال والعصي فلما ألقوها تحركت وملأت الوادي يركب بعضها بعضا»(١)، ولكثرتها كانت في الأرض ميلا في ميل(٢)، وقيل غير ذلك.

ومثل هذا يبعث في النفس الغرور والعجب، ويورثها الكبر والتعالي، وإذا كان أهل الإيمان حال الغفلة قد تعجبهم كثرتهم فكيف بمن استعان بالشيطان، وتعلق بمخلوق متكبر لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً.

وهذا منطق الطغاة على مر العصور، فَعَادٌ استكبروا في الأرض بغير الحق ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فجاء الجواب مباشرة: وفرعون وملؤه منعهم الكبر والعلو في الأرض ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٦-٤٧]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

فقوة هؤلاء لم تغن عنهم شيئا، والذي خلقهم أشد منهم قوة، وقد أخذهم بذنوبهم فلم تغن قوتهم ولا جمعهم شيئا، وقد قال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٤-٤٥]، وقال: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧-١٨].

وقد ظهر إدلاؤهم بجمعهم وما معهم من السحر والإفك في تخييرهم لموسى عليه السلام، فقالوا «على وجه التألي وعدم المبالاة بما جاء به موسى ﴿يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ﴾ ما معك ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾، فقال موسى: ﴿أَلْقُوا﴾: لأجل أن يرى الناس ما معهم وما مع موسى»(٣).

ولفظ الآية دال على ذلك؛ إذ «عبروا عن إلقاء موسى بالفعل، وعن إلقاء أنفسهم بالجملة الاسمية، إشارة إلى أنهم أهل الإلقاء المتمكنون فيه»(٤).

وهذا أقرب من القول بأنهم قالوه تأدبا مع موسى عليه السلام، وأن ذلك كان سبب إيمانهم(٥)، بل هو «من باب الْإِدْلَالِ لما يعلمونه من السحر، وإيهام الغلبة والثقة بأنفسهم، وعدم الاكتراث

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢/ ٤٣٩)، وينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي (٣/ ٢٦٥).

(٢) ينظر: المرجع السابق (٣/ ٢٦٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي (ص ٢٩٩).

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (١/ ٢٩٨).

(٥) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/٢٤٠)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، (٢٥٩/٧)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٣/ ٢٨)، التفسير الكبير للرازي (١٤/ ٣٣٤-٣٣٥).

والابتهال بأمر موسى عليه السلام»[١]، لا سيما وهم في ذلك الوقت كفرة فجرة، وهذا كأنه إظهار ثقتهم بأنفسهم، واعتقادهم أنهم الغالبون، إن ألقيت قبلنا غلبناك، وإن ألقينا قبلك غلبناك؛ فإن شئت فتقدم أو تأخر[٢].

وقد قابلهم موسى بنقيض قصدهم، فجعل لهم البداءة؛ «ازدراء لشأنهم، وقلة مبالاة بهم، وثقة بما كان بصدده من التأييد السماوي، وأنّ المعجزة لن يغلبها سحر أبداً»[٣]، ومن الحكم أيضا: أن يرى «الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فُرِغ من بهرجهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تطلب له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس، وكذا كان»[٤].

ولو كان متساويين لكان للمتقدم مزيد تأثير، فإن «التقدم في التخييلات والشعوذة أنجح للبادئ؛ لأن بديهتها تمضي في النفوس وتستقر فيها، فتكون النفوس أشد تأثرا بها من تأثرها بما يأتي بعدها»[٥]، وإذا وقعت من النفس موقعا وتمكنت منه صعب على المتأخر أن يمحو ذلك الأثر، وقد أعطاهم موسى عليه السلام التقدم «فنشطوا وسُرُّوا، حتى أظهر الله الحق وأبطل سعيهم»[٦].

وليس في أمر موسى عليه السلام لهم بالإلقاء إقرار لكفرهم، ولا أمر لهم بذلك؛ فإن غايته أن يأمرهم به على وجه التحدي أو التهديد لهم، أو الاستخفاف بهم وبيان ضعف ما عندهم، أو ليبين كذبهم وتمويههم فتكون معجزته أظهر، وغيرها من المعاني التي ذكرها أهل التفسير[٧].

ويحسن أن يقال: إنه ليس أمرا لهم بالإلقاء، وإنما إذن لهم في الأولية لحكمة يريدها الله تعالى؛ «فليس الإذن لهم تسويغا، ولكنهم خيروه في التقدم أو يتقدموا فاختار أن يتقدموا...، وفي هذا دليل على جواز الابتداء بتقرير الشبهة للذي يثق بأنه سيدفعها»[٨].

(١) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان (١٣٣/٥)، وينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٤٥٦).
(٢) ينظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٧٧/٤).
(٣) الكشاف للزمخشري (٢٤٠/٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٤٥٦).
(٥) التحرير والتنوير لابن عاشور (٩/ ٤٧).
(٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢/ ٤٣٨).
(٧) ينظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (١٤٤/٢)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٥٩/٧)، فتح القدير للشوكاني (٢٦٤/٢)، العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٧٨/٤)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (٥٤٤/٤)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٤٧/٩).
(٨) المرجع السابق (٤٧/٩).

ومن حال هؤلاء السحرة طمعهم في الدنيا، وتعلقهم بها، فقالوا على سبيل الإخبار المجزوم به أو على سبيل الاستفهام ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣]، فأطمعهم فرعون بما هو فوق ذلك، «بالأجر والتقريب وعلو المنزلة عنده؛ ليجتهدوا ويبذلوا وسعهم وطاقتهم في مغالبة موسى»(١).

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: «وتنكير ﴿لَأَجْرًا﴾ تنكير تعظيم؛ بقرينة مقام المَلِك وعظم العمل، وضمير ﴿نَحْنُ﴾ تأكيد لضمير كنا إشعارا بجدارتهم بالغلَب، وثقتهم بأنهم أعلم الناس بالسحر، فأكدوا ضميرهم لزيادة تقرير مدلوله»(٢).

وهؤلاء السحرة يعلمون حقيقة سحرهم وما ينطوي عليه من التخييل والكذب، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، أي يكذبون، فسحرهم كذب وباطل، وتخييل وخداع، وتمويه(٣).

وسمي الكذب المصنوع إفكا؛ «لأن فيه صرفا عن الحق وإخفاء للواقع، فلا يسمى إفكا إلا الكذب المصطنع المموه، فالذي يظهر من السحر مخالف للواقع، فشبه بالخبر الكاذب، وصيغة المضارع ﴿يأفكون﴾ لدلالة على التجديد والتكرير، مع استحضار الصورة العجيبة، أي: فإذا هي يتجدد تلقفها لما يتجدد ويتكرر من إفكهم(٤).

وقد خيلوا إلى أعين بما أحدثوه من التخييل والخداع أنها تسعى، وخوفوهم بما سحَروا في أعيُنِهم، فخافوا من العِصِيِّ والحبالِ التي صارت كأمثال الجبال، ظنًّا منهم أنها حياتٌ، فهو تخييل عظيم كبير، وبتخييل سَعْي ذلك العدد الكثير وصف سحرهم بالعظم، فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد ذلك(٥)، فهو سحر عظيم «لم يوجد له نظير من السحر»(٦).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي (ص ٢٩٩).
(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٤٦/٩).
(٣) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٣٥٦/١٠، ٣٥٨، ٣٦٠)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي (ص ٢٩٩).
(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (٤٩/٩).
(٥) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٣٥٦/١٠، ٣٥٧)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (٥٤٧/٤).
(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي (ص ٢٩٩).

فالسحر الذي جاء به السحرة تخييل لا حقيقة له في نفس الأمر، وهذا صريح آية سورة طه ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، وفي سورة الأعراف: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف:١١٦]، وهذا نوع من السحر وهو سحر التخييل، والنوع الثاني ما له حقيقة، كما في قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فدلت الآية على أنه شيء موجود له حقيقة تكون سببًا للتفريق بين الرجل وامرأته، وهذا هو التحقيق في المسألة الذي عليه جماهير أهل العلم(١).

ولعظم هذا السحر بكثرة ما فيه من التخييل استرهبوا الناس وأخافوهم، وسلكوا قبل ذلك مسالك أخرى من خلال مبارزتهم لموسى عليهم السلام.

فلعلهم أرادوا حين خيروا موسى عليه السلام أن يلقي أولا أو يلقوا قبله أن يظهروا ثقتهم بمقدرتهم وأنهم الغالبون، وأن يسبروا مقدار ثقته فيعرفوا ذلك مما يبدو منه من استواء الأمرين عنده أو من الحرص على أن يكون هو المقدم؛ «فإن لاستضعاف النفس تأثيراً عظيماً في استرهابها وإبطال حيلتها»، فجاءوا بكلام يسترهب موسى عليه السلام، ويهول شأنهم في نفسه(٢).

فقوله: ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ جمع بين الإرهاب الحسي والمعنوي، وذلك بكثرة هذه الحبال والعصي، وسحر أعين الناس، وما سبق ذلك من إرادتهم زعزعة ثقة موسى عليه السلام بنفسه، وتعظيم شأنهم عنده، وتخويفه بما معهم.

والاسترهاب طلب الرهب أي الخوف، بأن يضيفوا لتلك التخييلات أمورا أخرى تثير خوف الناس؛ ليزداد تمكن تلك التخيلات من قلوبهم، وتلك الأمور أقوال وأفعال توهم أن سيقع شيء مخيف، كقولهم: خذوا حذركم، وسيقع شيء عظيم، وسيحضر كبير السحرة، ونحو ذلك من التمويهات، والخزعبلات، والصياح، والتعجيب، ويمكن أن تكون السين والتاء في ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ للتأكيد، أي: أرهبوهم رهبا شديدا(٣).

وقد وعظهم موسى عليه السلام وذكرهم بالله تعالى فلم يرجعوا عما هم عليه، ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ * قَالُوا إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٢-٦٣].

(١) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (٤/ ٥٤٦).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٤٧/٩).
(٣) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٤٨/٩).

فلما سمعوا مقالة موسى عليهم السلام وقع في نفوسهم من مهابته أمر شديد، فتنازعوا بينهم في السر، هل هو محق أم مبطل، ونحو ذلك، ثم قالوا في العلن بعد ذلك: ﴿إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾، فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفا من غلبتهما، وتثبيطا للناس عن اتباعهما، وخوفا من فرعون أن يتبين منهم ضعفا(١).

ومما قيل في ذلك: أن تنازعهم إما في قولهم: إن كان ساحرا غلبناه، وإن كان من السماء فله أمر، أو في قول بعضهم لبعض: ما هذا القول بقول ساحر(٢).

فتلخص من ذلك: قصدهم إرهاب الناس وإخافتهم لتكون لهم الغلبة، وإجماع أمرهم على مواجهة الحق ومجابهته مع ما وقع في نفوس بعضهم من صدق موسى عليه السلام، وأنه ليس بساحر.

والإنسان قد يصده عن الحق مهابة من حوله، أو خوفه وطمعه من مرؤوسيه وأسياده، أو خشيته على شيء من مصالح دنياه، أو تمسكه بما عليه قومه وآباؤه، أو بغضه وحسده، وبغيه وهواه، إلى غير ذلك من الأسباب.

ومعرفة العالم والداعية بحال من يدعوه يحدد له طريق التعامل معه، فقد يحتاج معه إلى الإغلاظ والشدة، وقد يحتاج إلى اللين والرفق، والحكمة وضع الشيء في موضعه المناسب له.

المبحث الثاني: إيمان السحرة بالله تعالى وثباتهم على الحق

لما جاء السحرة بسحر عظيم أوجس موسى عليه السلام خيفة في نفسه، وإيجاس الخوف إضمار شيء منه، وهذا من مقتضى الجبلة البشرية، ولا يكاد الخلق أن يخلو من مثله، فجاء التطمين له والوعد بنصرته: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [طه:٦٤]، وهذا فيه تقرير لغلبته وقهره، وتوكيد بالاستئناف، وبكلمة التشديد، وبتكرير الضمير، وبلام التعريف، وبلفظ العلوّ - وهو الغلبة الظاهرة -، وبالتفضيل(٣)، فهو الأعلى «على هؤلاء السحرة، وعلى فرعونَ وجنده»(٤).

والوصف بالعلو أبلغ من الوصف بالغلبة؛ فإن الحرب تكون سجالا مع الكفار، يدالون مرة ويدال عليهم أخرى؛ وأما العلو فلا يكون إلا لأهل الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٣/٧٢)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٤/٥٠).
(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٦/٩٥، ٩٦).
(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري (٣/٧٤).
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٦/١١١).

بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٠].

فموسى عليه السلام كان هو الأعلى حال استضعافه، وظهر علوه حين نصره الله على أعدائه؛ فهو الأعلى في قدره ومنزلته، وعلى فرعون وجنده، وعلى السحرة المغالبين له، وفي ظهور صدقه وأمره، وفي نصر الله تعالى وتأييده له، وفي قوة حجته وبرهانه، وفي بطلان كلامه خصومه، وفي بقاء ذكره من بعده.

ومن إعزاز الله تعالى له ونصرته إياه إيمان السحرة كلهم، وإعلانهم التوحيد لله سبحانه، وسجودهم له، وتضرعهم إليه، وطلبهم المغفرة منه، وبذل أرواحهم رخيصة في طلب مرضاته.

وقد أخبر الله تعالى عن ظهور الحق وعلوه، وزهوق الباطل واضمحلاله، فقال سبحانه: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨].

وقد «استعير الوقوع لظهور أمر رفيع القدر؛ لأن ظهوره كان بتأييد إلهي، فَشُبِّه بشيء نزل من علو، وقد يطلق الوقوع على الحصول؛ لأن الشيء الحاصل يشبه النازل على الأرض...، والمعنى: فظهر الحق وحصل، ولعل في اختيار لفظ (وقع) هنا دون (نزل) مراعاة لفعل الإلقاء؛ لأن الشيء الملقى يقع على الأرض فكان وقوع العصا على الأرض وظهور الحق مقترنين، والحق: هو الأمر الثابت الموافق للبرهان، وضده الباطل، والحق هنا أريد به صدق موسى وصحة معجزته وكون ما فعلته العصا هو من صنع الله تعالى، وأثر قدرته»[١].

فصار الظهور شاملا لظهور العصا على الحبال، ولظهور موسى على فرعون وشيعته.

وقوله: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ يفيد قوة الثبوت والظهور، فلا يتصور فيه البطلان، كما أن الواقع لا يصح فيه ألا يكون إلا واقعا، ثم جاء التأكيد بزوال الأعيان التي أفكوها؛ ولا غلبة أظهر من ذلك، ولا صغار ولا ذل أعظم في حق من المبطل من ظهور بطلان قوله وحجته على وجه لا يمكن فيه حيلة ولا شبهة أصلا[٢].

وكم في ألفاظ القرآن من إيجاز اللفظ مع جزالة المعنى وغزارته، فإن ظهور آية موسى دال على صدقه ونبوته، وعلى بطلان سعي فرعون وكذبه، وإفك السحرة وبطلان سحرهم، فبرأ الله موسى من جميع تهم فرعون وافتراءاته، وامتن الله عليه بأعلى المنازل في الدنيا والآخرة، وبقي ذكره في الآخرين.

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٩/ ٥٠)، وينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢/ ٤٤٠).
(٢) ينظر: التفسير الكبير للرازي (١٤/ ٣٣٦).

أما فرعون وشيعته ومن معه من السحرة فقد غلبوا هنالك وانقلوا صاغرين، فآمن السحرة وبقي فرعون يَعْمَهُ في غيِّه، وزاد طغيانه وفجوره وظلمه.

وقد غلب فرعون وشيعته وسحرته، وأما الصغار فقد ذهب بعض المفسرين إلى عمومه أيضا، وانقلاب السحرة صاغرين دلالة على ظهور عجزهم، وخيبة رجائهم فيما أملوه من الأجر والقرب من فرعون، وحصول ذلك عقب تلقف العصا ما يأفكون، وتعقيب كل شيء بحسبه، فسجود السحرة متأخر عن مصيرهم صاغرين، ولكنه متأخر بزمن قليل وهو زمن انقداح الدليل على صدق موسى في نفوسهم، فلما رأوا تلقف العصا لحبالهم وعصيهم وعلموا أنه بسحر، وأنه من تأييد الله لموسى، فسجدوا حينئذ وآمنوا، وقد اختصوا بالسجود دون بقية الحاضرين؛ ولذلك جيء بالاسم الظاهر دون الضمير لئلا يلتبس بالضمير الذي قبله الذي هو شامل للسحرة وغيرهم[1].

يقول ابن عطية: «وفي قوله: ﴿وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ إن قدرنا انقلاب الجمع قبل إيمان السحرة فهم في الضمير، وإن قدرناه بعد إيمانهم فليسوا في الضمير، ولا لحقهم صغار يصفهم الله به؛ لأنهم آمنوا واستشهدوا رضي الله عنهم»[2].

وقد علم السحرة صدق موسى عليه السلام حين رأوا عصاه حية تلقف ما يأفكون، لا تمرُّ بشيءٍ من حبالِهم وخُشُبِهم التي أَلْقَوها إلا التقَمته، فعرفوا أن هذا أمرُ السماءِ، وليس هذا بسحرٍ، فخرُّوا سُجَّدًا[3]، وقالوا: «لو كان هذا ساحرا ما غُلبنا»[4].

وهي آية عظيمة تجلت فيها قدرة الله تعالى، إذ كيف تتحول العصا ثعبانا تلقف تلك الحبال والعصي على كثرتها، ثم تعود إلى ما كانت عليه، فتحول عصا آية، والتقافها لذلك العدد المهول آية، وذهاب أعيان تلك الحبال والعصي آية، وعود الثعبان إلى ما كانت عليه آية، ومثل هذا لا يقدر عليه إلا الله جل في علاه.

يقول الزمخشري: «سبحان الله ما أعجب أمرهم، قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين!»[5].

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٩/ ٥٠، ٥٢).
(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢/٤٤٠).
(٣) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٠/ ٣٥٨)، وينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي (٢/ ٣٩٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٤٥٧).
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٠/٣٥٩)، وينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٤٥٨).
(٥) الكشاف للزمخشري (٣/ ٧٥).

ولما كان السحرة أعلم الناس بالسحر علموا أن ما جاء به موسى عليه السلام آية من ربه؛ وأنها دالة على صدقه، يقول السعدي رحمه الله تعالى: «وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر، الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله، لا يدان لأحد بها»(١).

وليس علم هؤلاء السحرة كعلم غيرهم؛ ولذا علموا أن هذا خارج عن السحر، وأنه أمر إلهي، واستدلوا بذلك على نبوة موسى عليه السلام وصدقه، فهم قد بلغوا الغاية من علم السحر وحقيقته، ووقفوا على منتهاه، ولو لم يبلغوا من علم السحر هذه المنزلة لما قدروا على هذا الاستدلال، ولجوزا أن يكون أعلم منهم بالسحر فقدر على ما لم يقدروا عليه، إلا أنهم لما كانوا كاملين في علم السحر علموا صدقه وآمنوا به، فإذا ميزوا ذلك لكمالٍ في علم السحر، فكيف بكمالِ حالِ الإنسان في علم التوحيد؟(٢).

فيقين السحرة بالحق حين رأوه لتمام علمهم ببطلان ما كانوا عليه، والشيء يعرف بضده، ولا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية، وليست الخوارق المبنية على الكذب كالآيات الكبرى أو الصغرى التي يؤيد الله بها أنبيائه ورسله.

وبيان ذلك أن آيات الأنبياء التي تسمى معجزات قد اختص بها الأنبياء، ولا يماثلهم فيها غيرهم، وقد اختصوا بالآيات الكبرى التي لا يكون مثلها لغيرهم، كانشقاق القمر، والإتيان بالقرآن، وانقلاب العصا حية، وخروج الدابة من صخرة، وخلق الطير من الطين، وأما الآيات الصغرى فقد تحصل للصالحين لكنها لا تماثل آيات الأنبياء في قدرها، مثل تكثير الطعام، فقد يقع لبعض الصالحين، لكن لا يماثل ما وجد للنبي صلى الله عليه وسلم أنه أطعم الجيش من شيء يسير(٣).

فآيات الأنبياء لا يعارضها من ليس بنبي؛ ولهذا أراد فرعون معارضة ما جاء به موسى عليه السلام، وجمع السحرة ليفعلوا مثل ما يفعل موسى، فلما ألقوا حبالهم وعصيهم وابتلعتها العصا التي صارت حية، علم السحرة أنّ هذا ليس من جنس مقدورهم، فآمنوا إيماناً جازماً...، فكان من تمام علمهم بالسحر: أنّ السحر معتادٌ لأمثالهم، وأنّ هذا ليس من هذا الجنس(٤).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي (ص ٢٩٩).
(٢) ينظر: التفسير الكبير للرازي (١٤/ ٣٣٧).
(٣) ينظر: النبوات لابن تيمية (٢/٨٠٢-٨٠٤).
(٤) ينظر: المرجع السابق (١/١٦٩-١٧٠).

فلما تيقن السحرة ذلك خروا ساجدين لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠]، فألقوا ساجدين لربهم عندما عاينوا عظيم قدرته سبحانه، قائلين: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٢]، فصدقوا بما جاء به موسى، وأن الله الذي تجب عبادته هو الذي يملك الجن والإنس وجميع الأشياء، ويدبر ذلك كله(١).

وذكر لفظ الإلقاء مع كونهم سجدوا باختيارهم فيه دلالة على سرعة سجودهم فكأنما ألقوا، أو أنهم لم يتمالكوا مما رأوه فكأنما ألقوا، وقيل غير ذلك(٢)، واحتجت به بعض الفرق في مسألة القدر، ولا دلالة لهم فيه، فإن آمنوا وصرحوا بإيمانهم، وهو من جملة أعمالهم.

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «فإن قيل: كيف قال: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾، وإنما سجدوا باختيارهم؟ فالجواب: أنه لما زالت كل شبهة بما أظهر الله تعالى من أمره، اضطرهم عظيم ما عاينوا إلى مبادرة السجود، فصاروا مفعولين في الإلقاء تصحيحاً وتعظيماً لشأن ما رأوا من الآيات ذكره ابن الأنباري»(٣).

وقد كان السحرة أول المؤمنين، وتبع موسى كما في بعض الروايات ستمائة ألف من بني إسرائيل(٤).

وليس المقصود معرفة قدر عددهم، وإنما كون السحرة سبقوا للإيمان، فرجوا أن يكون ذلك سببا لمغفرة خطاياهم، كما أخبر الله تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥١].

وليس هذا من باب الإدلال على الله تعالى والمنة عليه بكونهم أول المؤمنين، وإنما من التحدث بنعمته عليهم، ورجاء كونه سببا في مغفرة خطاياهم؛ فالآية دالة على أن السبق إلى الإيمان من أسباب المغفرة والرفعة، ونظيره من أسلم من قبل الفتح وقاتل؛ فإنه أعظم درجة ممن أنفق بعد وقاتل، والسابق إلى الإيمان والعمل الصالح له مزية، ومرتبة عالية(٥).

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٣٦١/١٠).
(٢) ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي (٣/ ٢٦٦)، الكشاف للزمخشري (٢/ ١٤١)، التفسير الكبير للرازي (١٤/ ٣٣٧)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢٨/٣).
(٣) زاد المسير في علم التفسير لابن الحوزي (٢/ ١٤٤).
(٤) ينظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٢/ ١٤٤)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٢٦١)، التفسير الكبير للرازي (٣٣٥/١٤).
(٥) ينظر: تفسير القرآن الكريم – سورة الشعراء، لابن عثيمين (ص ١١٤، ١١٥).

وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦]، فقوله: ﴿لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ فيه «إشارة إلى سرعة انقيادهم، وسجودهم لله عند مجيء الآية لم يبطئوا ولم يتلعثموا»(١).

وفرعون حين رأى إيمان السحرة خاف على أن يكون ذلك حجة عند قومه على صحة نبوة موسى، فألقى في الحال نوعين من الشبه ليصد الناس عن الإيمان؛ أولهما قوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، فزعموا أنهم تواطئوا مع موسى إن كان كذا وكذا آمنوا به، والشبهة الثانية: أن غرض موسى والسحرة إخراج القوم من المدينة ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فجمع هاتين الشبهتين اللتين لا يوجد أقوى منهما في هذا الباب، وغرضه أن يصرف العوام عن التصديق بنبوة موسى عليه السلام(٢).

وقد روي أنه «التقى موسى وأميرُ السَّحَرةِ، فقال له موسى: أرأَيْتُك إن غلبتُك، أتؤمنُ بي وتشْهَدُ أنَّ ما جئْتُ به حقٌّ؟ قال السَّاحرُ: لآتينَّ غدًا بسحرٍ لا يَغْلِبُه سحرٌ، فواللهِ لئن غلَبتنى لأُومِنَنَّ بك، ولأشهدَنَّ أنك حقٌّ، وفرعونُ ينظرُ إليهما»(٣).

وليس في هذا حجة لفرعون؛ فإن السحرة كانوا متفرقين في المدائن، فجمعهم فرعون وملؤه، «وموسى عليه السلام، لا يعرف أحداً منهم، ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رعاع دولته وجَهَلتهم، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]؛ فإن قوما صدّقوه في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] من أجْهَل خلق الله وأضلهم»(٤).

ويعلم فرعون كذلك أن السحرة «قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى حتى عجزوا، وتبين لهم الحق فاتبعوه»(٥).

فدعوى فرعون غاية في التمويه، ومظهر ضعف منه، فكيف يكون كبيرهم الذين علمهم السحر وهم قد حشروا من المدائن، وليس مع موسى في مدينته؟ وكيف يقال إنه علمهم وهم في مدائن متباعدة؟ وكيف يقال إنه كبيرهم الذي علمهم السحر وهم قد وضعوا حبالهم وعصيهم

(١) تفسير القرآن العظيم للسخاوي (١/ ٢٩٤).
(٢) ينظر: التفسير الكبير للرازي (٣٣٩/١٤).
(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٠/ ٣٦٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٤٥٨).
(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي (ص ٣٠٠).

ليقضوا عليه؟ وكيف يقال إنه علمهم السحر وهم قد استعزوا بعزة فرعون، ويعلمون أن فرعون خصم لموسى؟[١].

وهذا مثل وصف موسى بأنه ساحر عليم، وأنه يريد إخراجهم من أرضهم بسحره، فغايته التمويه والإضلال؛ فهو لصرف عن الناس عن الاعتراف بنبوته، ولإيجاد تفسير لآياته وبراهينه، وأنه من جنس هؤلاء السحرة، والطعن في مقصده بإرادة الملك، والاستحواذ على البلاد وخيراتها، وإخراج أهلها منها، ونحوه تخوفه أن يبدل دينهم أو أن يظهر في الأرض الفساد، فكلها تهم باطلة، ودعاوى كاذبة، وغايتها أن يحول بين الناس وبين سماع الحق، وأن ينفر الناس عنه، وهي سنة ماضية لا يفتأ أعداء الأنبياء عن سلوكها.

قال ابن كثير: «فَرَوَّج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته، والكفر به»[٢].

ومن جبروت فرعون استنكاره أن يؤمنوا قبل أن يأذن لهم؛ وقد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع، ولا خروج لهم عن قوله وحكمه[٣].

ومن اللفتات في هذا: ما نقله الرازي عن القاضي: أن قول فرعون: ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ فيه دليل على تناقضه في ادعاء الألوهية، «لأنه لو كان إلها لما جاز أن يأذن لهم في أن يؤمنوا به، مع أنه يدعوهم إلى ألوهية غيره[٤].

وذكر ابن عطية أن قوله هذا «دليل على وهن أمره؛ لأنه إنما جعل ذنبهم مفارقة الإذن ولم يجعله نفس الإيمان إلا بشرط»[٥].

وبلغ الأمر بفرعون إلى التهديد بقتلهم والتنكيل بهم، فتوعدهم إن آمنوا أن يقطع أيدهم وأرجلهم من خلاف، بأن «يَقطعَ مِن أحدِهم يدَه اليمنى ورجلَه اليسرى، أو يَقطعَ يدَه اليسرى ورجلَه اليمني، فيخالفَ بينَ العُضوين في القطعِ، فمخالفتُه في ذلك بينهما هو القطعُ من خلافٍ، ويقالُ: إن أَوَّلَ مَن سَنَّ هذا القطعَ فرعونُ...، وإنما قال هذا فرعونُ لِمَا رأى مِن خِذلانِ اللَّهِ إياه وغلبةِ موسى وقهرِه له»[٦].

(١) ينظر: تفسير القرآن الكريم – سورة الشعراء، لابن عثيمين (ص ١٠٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ١٣٩).
(٣) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي (ص ٣٠٠).
(٤) التفسير الكبير للرازي (١٤/ ٣٣٨-٣٣٩).
(٥) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢/ ٤٤٠).
(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٠/ ٣٦٣).

ووعيده عام لجميع السحرة كما هو صريح الآية ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤].

ولم يثنهم هذا التهديد ولا الوعيد؛ لأن الإيمان لما استقر في قلوبهم تغيرت معه مداركهم، وتبدلت موازينهم، فنظروا للدنيا باعتبارها فانية، وطمعوا فيما عند الله والدار الآخرة.

«ففي لحظةٍ واحدةٍ انقلبَ الكفرُ العظيمُ إِلَى إيمانٍ عَميقٍ»(١)، وصلحت معه جميع تصوراتهم.

وكان أول ذلك إيمانهم بموسى عليه السلام، وبما جاء به من البينات والهدى، وإيمانهم بالله الذي خلقهم وأوجدهم من العدم، ورباهم بالنعم، فهو المستحق للعبادة دون من سواه: ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢].

ونظروا إلى هذه الدنيا نظرة الازدراء لها، العالم بزوالها، فلم يبالوا بظلم فرعون وجبروته، وعلموا أن غاية ما يفعله أن يزهق أرواحهم، فيرتقوا شهداء لله تعالى، ولا يقع شيء إلا بمشيئة الله تعالى وإرادته.

ثم ذكروا غايتهم ومطلوبهم، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٣]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وفي دعائهم بالوفاة على الإسلام ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ إيذان بأنهم غير راغبين في الحياة، ولا مبالين بتهديد فرعون، وأن غايتهم النجاة في الآخرة، والفوز بما عند الله...، والإسلام هو دين الأنبياء عليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢](٢).

فالإسلام إذا ذكر وحده أريد الدين كله؛ إذ مقتضاه الاستسلام لله تعالى ظاهرا وباطنا، فيستلم لله تعالى بتوحيد وطاعته، وأمره ونهيه، ويبرأ من كل ما يخالف دينه وشرعه.

وفي قوله: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ دلالة على أنه أكرههم عليه، وروي في ذلك أن فرعون أخذ منهم فيما مضى أربعين غلاما لتعليمهم السحر(٣)، بينما دلت آيات أخر على أنهم فعلوه طائعين غير مكرهين، فإنهم جاءوا طامعين في الأجر طالبين له، وتنازعوا فيما بينهم وأجمعوا

(١) تفسير القرآن الكريم – سورة الشعراء لابن عثيمين (ص ١١١-١١٢).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٩/ ٥٦).
(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٧/ ٢٤٢٨).

الرأي على مغالبة موسى عليه السلام، ووجه الجمع من وجوه، أقربها: أنه أكرهم على الشخوص من أماكنهم، فلما قدموا وأُمروا بالسحر أتوا طائعين، فإكراههم بالنسبة إلى أول الأمر، وطوعهم بالنسبة إلى آخر الأمر، فانفكت الجهة وبذلك ينتفي التعارض، وقيل: بأن الإكراه بتعليم صغارهم السحر، ولا ينافي ما فعلوه بعد تعلمهم وكبرهم طائعين، وقيل غير ذلك(١).

ويشهد للمعنى الأول أن فرعون أرسل أصحاب الشرط ليحشروا السحرة من المدائن، ولفظ الحشر يتضمن معنى الإكراه، فلا يكتفون بدعوتهم أو ترغيبهم في المجيء، وإنما يسوقونهم سوقا دون اعتبار لرأيهم.

وقد يفهم من الآية عدم عذرهم في استجابتهم ولو كانوا مكرهين، ولذا رجوا مغفرة الله تعالى لهم، لا سيما وقد وعظهم موسى عليه السلام، وذكرهم بالله تعالى، فمضوا فيما هم عليه حتى ظهرت آيته.

وقد برأ السحرة ساحتهم من تمويه فرعون، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، فبينوا أن فرعون لا يجد ما ينقم به عليهم سوى إيمانهم بالله تعالى، وتصديقهم بآياته التي لا يقدر عليها أحد إلا الله الذي له ملك السموات والأرض، ثم فزِعُوا إلى اللهِ بمسألتِه الصبرَ على عذابِ فرعونَ، وقبضَ أرواحِهم على الإسلامِ(٢).

وفي الآية بيان لجأهم لله تعالى، وتضرعهم إليه، وسؤاله الثبات على دينه، واستمداده الصبر على ما يحل بهم، ومن كان الله عونه فلا حزن عليه ولا خوف.

وقد سألوا الله تعالى أن يفيض عليهم ﴿صَبْرًا﴾ أي: «عظيماً، كما يدل عليه التنكير، لأن هذه محنة عظيمة، تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير، ليثبت الفؤاد، ويطمئن المؤمن على إيمانه، ويزول عنه الانزعاج الكثير»(٣).

ولفظ: ﴿أَفْرِغْ﴾ معناه عمنا كما يعما الماء من أفرغ عليه، والإفراغ صب ما في الإناء بالكلية، فكأنهم طلبوا من الله تعالى كل الصبر لا بعضه، فهو أبلغ من لفظ الإنزال، ويؤكد هذا تنكير لفظ الصبر: أي صبرا كاملا تاما، والآية كلها دالة على تمام تسليم السحرة، واتكالهم على الله،

(١) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (٤/ ٥٩٣).
(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٠/ ٣٦٤).
(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي (ص ٣٠٠).

وثقتهم بما عنده[١].

وفي دعائهم الوفاة على الإسلام ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ إيذان بأنهم غير راغبين في الحياة، ولا مبالين بتهديد فرعون، وأن غايتهم النجاة في الآخرة، والفوز بما عند الله[٢].

ولم يبال السحرة بعقوبته فرعون ولا تهديده؛ لعلمهم أن إلى ربهم منقلبون، وهذا المعنى شامل لجملة من الأقوال التي قيلت في الآية، فهم منقلبون إلى لقاء الله ورحمته، ومنقلبون إليه يوم الجزاء فيثيبهم على شدائد القطع والصلب، أو هم وفرعون منقلبون إلى الله فيحكم بينهم، أو إنهم لا محالة ميتون منقلبون إلى الله فلن يتجاوز قدر الله تعالى فيهم[٣].

يقول الطاهر ابن عاشور: «وقد جاء هذا الجواب موجزا إيجازا بديعا لأنه يتضمن أنهم يرجون ثواب الله على ما ينالهم من عذاب فرعون، ويرجون منه مغفرة ذنوبهم، ويرجون العقاب لفرعون على ذلك، وإذا كان المراد بالصلب القتل وكان المراد تهديد جميع المؤمنين، كان قولهم: إنا إلى ربنا منقلبون تشوقا إلى حلول ذلك بهم محبة للقاء الله تعالى»[٤].

فهم يعلون أنه لا ضير عليهم فيما يلحقهم من عذاب الدنيا؛ لأنهم يعلمون أنه عذاب ساعة، فيصبرون لذلك إلى أن يلقوا ربهم مؤمنين، وهذا يدل على شدة استبصارهم، وقوة إيمانهم[٥].

وثباتهم على الإيمان كرامة من الله تعالى، والاستقامة أعظم كرامة، وقد يمن الله على بعض الصالحين ببعض الكرامات تثبيتا له، وينزل عليهم من السكينة ما تطمئن به قلوبهم، ويزداد به إيمانهم، فهم في غاية السعادة والطمأنينة وإن تعذب أجسادهم.

وكتب التفسير تورد شيئا من ذلك، وأنهم لما سجدوا رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة؛ إلا أن الغاية ذكرها الله تعالى في كتابه، فقص من أخبارهم وثباتهم وإيمانهم ما فيه عظة وعبرة.

ومن هذا الباب ما جرى عليهم بعد إيمانهم، وهل أوقع فرعون بهم عقوبته أم لم يتمكن منهم، وليس في الآيات نص عليه، لكن قد يفهم هذا من عموم الأدلة، ويستأنس بما روي في هذا الباب.

(١) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢/ ٤٤١).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٩/ ٥٦).
(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ١٤١).
(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (٩/ ٥٥).
(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣/ ٩٩).

والمعتبر وفاتهم على الإيمان؛ فالعبرة بالخواتيم، فقد كانوا أول النهار كفارا سحرة، وفي آخره مؤمنين بررة، وإن لم يتمكنوا من امتثال العبادات فإنهم يدخلون الجنة وإن لم يسجدوا لله سجدة واحدة.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: « والظاهر أن فرعون لعنه الله صمم على ذلك وفعله بهم رحمهم الله، ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء»(١).

ومن نفى فعل ما هددهم به استدل بأن الله استجاب لهم دعاءهم أن يتوفاهم مسلمين، فيكون توفيهم من جهته لا بهذا القتل والقطع(٢)، كما استدلوا بقوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥](٣)، مع عدم وجود سند يعتمد عليه في إيقاع العقوبة بهم.

يقول ابن عاشور: «والقرآن لم يتعرض هنا، ولا في سورة الشعراء، ولا في سورة طه، للإخبار عن وقوع ما توعدهم به فرعون لأن غرض القصص القرآنية هو الاعتبار بمحل العبرة وهو تأييد الله موسى وهداية السحرة وتصلبهم في إيمانهم بعد تعرضهم للوعيد بنفوس مطمئنة، وليس من غرض القرآن معرفة الحوادث كما قال في سورة النازعات: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٦]، فاختلاف المفسرين في البحث عن تحقيق وعيد فرعون زيادة في تفسير الآية، والظاهر أن فرعون أفحم لما رأى قلة مبالاتهم بوعيده فلم يرد جوابا»(٤).

ولعله بذلك انقطعت حجته، فلجأ للتهديد والوعيد، ثم حال الله بينه وبين المؤمنين ونجاهم مع موسى عليه الصلاة والسلام.

المبحث الثالث: الفوائد المستنبطة من قصة إيمان سحرة فرعون

تضمن المبحث الأول والثاني جملة من الفوائد الإيمانية والسلوكية من قصة إيمان سحرة فرعون، والتي ذكرها العلماء في كتبهم، أو استنبطت من خلال النظر في الكتاب والسنة.

والقرآن الكريم معين لا ينضب؛ لا يشبع من العلماء، ولا تنقضي عجائبه، إلى غير ذلك مما ذكر من أوصافه؛ ولذا تعددت كتب التفسير، وتنوعت مجالاتها، وانفرد كثير منها بفوائد وفرائد لم

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥/ ٣٠٥)، وينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٠/ ٣٦٤)، التفسير الكبير للرازي (١٤/ ٣٣٩).

(٢) ينظر: المرجع السابق (١٤/ ٣٣٩).

(٣) ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي (٣/ ٢٦٧)، وقد ذكر القولين.

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (٩/ ٥٦).

يسبق إليها، فاعتنى كثير من العلماء بالآثار الواردة في تفسير الآيات، وتميز طائفة منهم بالجانب اللغوي، واقتصر بعضهم على تفسير آيات الأحكام، وآخرون بالتفسير الموضوعي، وهكذا.

وبحسب التخصص فإن المقصود في هذا البحث ذكر ما له صلة بقصة سحرة فرعون، واستخراج الفوائد الإيمانية والتربوية من قصتهم، واستلهام العبرة من الآيات.

فمما يستفاد من هذه القصة: أن القلوب بيد الله سبحانه وتعالى، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، فلا تُسأل الهداية إلا منه، ولا يُقنط من رحمته، ولا يُتألى عليه سبحانه في توبة أحد أو مغفرة الله له.

والداعية إلى الله تعالى: عليه ألا ييأس من دعوة المخالفين، وأن يصبر على دعوتهم، ويتحمل الأذى منهم، ويذكرهم بالله تعالى، ويخوفهم من عقابه، ويبين لهم حقيقة الدنيا والآخرة.

وموسى عليه السلام ذكرهم بالله تعالى مرارا، وهذا له أثر عند رؤيتهم للآية، فعلموا صدق موسى عليه السلام، وفهموا عنه دعوته، وصدعوا بالتوحيد الذي قد يخفى على كثير ممن ولد على الإسلام.

والتوحيد يكون بإفراد العبادة لله تعالى، والتعلق به، والرجاء له، والعلم أن كل شيء بقضائه وقدره، ولا يكون شيء إلا بمشيته، وأنه حكم عدل، وسيجازي العباد على أعمالهم، وينتصف للمظلوم من ظالمه، وأن الدنيا دار ابتلاء، ومآلها الزوال، والدار الآخرة خير وأبقى، وأن الفوز بالدرجات العلا لمن أتى مؤمنا ممتثلا لما أمره الله تعالى به من فعل الطاعات واجتناب المعاصي، وأن العقوبة والعذاب على من خالف أمره وعصاه وكفر به، وأن العبرة بالخواتيم، ولا غنى للعبد عن ربه ومولاه، فمنه يستمد الصبر والعون والتوفيق.

فهذا هو منطوق السحرة عقب إيمانهم، ولم يكونوا قبل ذلك مؤمنين بالله تعالى ولا رسله، ولا متيقنين من صدق موسى وصحة آيته، أو كانوا متنازعين في ذلك، أو مترديين بين الشك واليقين، فلما تيقنوا صدقه بادروا بالإيمان، وعلموا أنه ما جاء به هو الحق من ربه.

وهذه المعاني ذكرها لهم موسى عليه السلام قبل مبارزتهم له يوم الزينة، فذكرهم بالله تعالى، وخوفهم من عقابه، كما قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ * قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ * قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٠-٦٤].

وأكد على هذه المعاني حين ألقوا حبالهم وعصيهم: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ

السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١-٨٢].

ومما لا يخفى أن هذه المعاني كانت حاضرة في بداية دعوته لفرعون، وعنده ملؤه وسحرته والمقربون منه، كما قال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ إلى آخر الآيات [طه: ٤٣-٥٠].

فتضمنت هذه الآيات بيان المنهج الشرعي في الدعوة، كأمر موسى وأخيه هارون بدعوة فرعون للحق وتذكيره وموعظته بالقول اللين الحسن، وإقامة الحجة عليه بذكر الأدلة على الحق والهدى، وتخويفه من عاقبة الكذب والكفر، ومجادلته بالحجة والبرهان.

فإذا أمر الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام أن يقولا قولا لفرعون، وأخبر أنه أدعى لأن يتذكر أو يخشى، مع علمه سبحانه بمآله ومصيره، وعناده وجبروته، فكيف بدعوة من دونه في الطغيان، وقد يختم له بالإيمان، فهي رسالة لكل من يدعو لهذا الدين أن يبذل الأسباب، وهداية التوفيق بيد الله سبحانه.

واستحضار هذه المعاني مهم في الدعوة إلى الله تعالى، ولا غنى للمربين والآباء عنها؛ فإن التذكير بهذه المعاني مراد شرعا، كما أن أثر هذه المعاني قد لا يظهر إلا بعد سنوات طوال فيكون أدعى لقوة الإيمان والثبات عليه؛ ولذا اعتنى السلف بالتربية الإيمانية للنشء منذ نعومة أظفارهم، فكانوا يلقنونهم معاني التوحيد، ويغرسون فيهم الإيمان ومحبة الله تعالى، ويحصنونهم ضد الشرك والشبهات، فلا يزال أثر هذه التربية يظهر عليهم شيئا فشيئا، وكلما تقدم بهم العمر استقرت هذه المعاني وتمكنت، وتوسع فهمهم وإدراكهم لها.

ومما يستفاد من هذه القصة: أن رمي الأنبياء بالبهتان والكذب سنة ماضية، ففرعون وملؤه وسحرته وصفوا موسى وهارون عليهما السلام بالسحر، فأخبرنا سبحانه عن قول فرعون: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧]، وعن تحريض ملائه: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، والسحرة تراجعوا الكلام سرا فيما بينهم، ثم أجمعوا على رميهما بالسحر: ﴿ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣].

ولا يزال هذا دأب الطغاة مع تباعد أزمانهم وأماكنهم، حتى كأنهم تواصوا بذلك، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

فالوصف الجامع لهؤلاء هو الطغيان، فقد تواردت نفوسهم في تكذيب الأنبياء على اختلاف أزمانهم، فهم لم يتواصوا لكن فعلهم فعل من يتواصى، والباعث لذلك الطغيان وهو العلو في الأرض والعتو والإفساد فيها(١)، وسحرة فرعون مشاركون له في طغيانه، وقد طغوا وتجاوزا في امتهانهم السحر مع تيقنهم ببطلانه.

ومما يستفاد من هذه القصة: إيمان السحرة وثباتهم على الحق بعد ابتلائهم بالسراء والضراء، فقد أطمعهم فرعون في نواله والقرب منه، فلما استبان لهم الحق ودخل الإيمان قلوبهم تركوا ذلك كله، وصدعوا بالحق، فلجأ فرعون إلى التهديد والوعيد، وقد بلغ من الجبروت والطغيان مبلغا عظيما لا يستغرب معه أن يوقع بهم ما توعدهم به، ومع ذلك صبروا ولجأوا إلى الله تعالى وسألوه الثبات على دينه، والوفاة عليه، فكان الإيمان هو العاصم لهم من هذه الفتن، والمرء قد يبتلى بالسراء والضراء، وليست الضراء بأشد من السراء، فإذا لم يتسلح بالإيمان والتضرع لله تعالى فإنه يخشى عليه من الفتنة، وقد خاف النبي ﷺ على أمته من الدنيا، فقال عليه الصلاة والسلام: «فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»(٢)، وفي الحديث الآخر: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»(٣).

والمؤمن أحوج ما يكون إلى سؤال الله تعالى الثبات على دينه، وأن يتوفاه على الإيمان، وأن يعصمه من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

ومما يستفاد من هذه القصة: أن الإيمان واليقين حين يتمكن من القلب يدرك الإنسان حقيقة الدنيا، فلا يبالي بعد ذلك بما فاته منها، ويتعلق رجاؤه بالآخرة، وهذا يذكرنا بنهج النبي ﷺ في تربيته لأصحابه، فقد كان يتألف على الإسلام أقواماً ويكل آخرين لإيمانهم، ولا يزال يبين لهم

(١) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (١٨٢/٥).

(٢) رواه البخاري ، كتاب: الرقاق ، باب: ما يُتَّقى من فتنة المال (٤٠١٥)، ومسلم ، كتاب: الزهد والرقائق ، باب: الدنيا وذمّها (٢٩٦١).

(٣) رواه مسلم ، كتاب: الإيمان ، باب: بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ (١١٨).

حقيقة هذه الدنيا كما في حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: «سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ فأَعطاني، ثم سألتُه فأَعطاني، ثمَّ سألتُه فأَعطاني، ثمَّ قال: يا حكيمُ، إنَّ هذا المالَ خَضِرةٌ حُلوةٌ، فمَن أَخَذَه بِسَخاوةِ نفسٍ بُورِكَ له فيهِ، ومَن أَخَذَه بإشرافِ نفسٍ لم يُبارَكْ له فيهِ، كالّذي يأْكُلُ ولا يَشبَعُ، اليَدُ العُلْيا خَيرٌ مِنَ اليَدِ السُّفلى، قال حكيمٌ: فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، والّذي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، لا أَرْزَأُ أَحَدًا بَعدَكَ شيئًا حتّى أُفارِقَ الدُّنيا، فكان أبو بكرٍ رضي الله عنه يَدعُو حكيمًا إلى العَطاءِ فيَأْبى أَنْ يَقْبَلَهُ منهُ، ثمَّ إنَّ عمرَ رضي الله عنه دَعاهُ لِيُعطيَه فأَبى أَنْ يَقبَلَ منهُ شيئًا، فقال عمرُ: إنّي أُشهدُكُم يا مَعشَرَ المُسلمينَ على حكيمٍ، أنّي أَعْرِضُ عَليهِ حَقَّه مِن هذا الفَيءِ، فيَأْبى أَنْ يَأْخُذَهُ، فلم يَرْزَأْ حكيمٌ أحدًا مِنَ النّاسِ بعدَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ حتّى تُوُفِّيَ»(١).

وفي قصة عمير بن الحمام الأنصاري رضي الله عنه حين أخبره النبي ﷺ أنه من أهل الجنة قبل معركة بدر «فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ»(٢).

وسحرة فرعون حين آمنوا طمعوا فيما عند الله تعالى، ورغبوا فيما وعدهم به من الجزاء، فلم يبالوا بتهديد فرعون، ولم يشغل بالهم سوى الخوف من الرجوع للكفر فسألوا الله تعالى أن يفرغ عليهم صبرا وأن يتوفاهم مسلمين.

و «الإيمان إذا صَدَقَ صَارَ أقوى من العاطفةِ، فَحُبُّ النَّفسِ أمرٌ فِطريٌّ، ولكن الإيمان يؤدِّي إِلَى أن ترخصَ النَّفسُ عند المرء بجانبِ دينِه»(٣).

والمؤمن حين يذكر بالله تعالى وبما أعده لأهل الإيمان والتقوى يهون عليه ما فاته من الدنيا، ويبذل ماله طلبا لمرضاة الله تعالى ورغبة فيما عنده، ولا يرجون من الناس جزاء ولا شكورا.

ومما يستفاد من هذه القصة: أن السابق للإيمان أفضل من غيره، ولذا طمع السحرة في مغفرة الله تعالى لهم أن كانوا أول المؤمنين، وقد سبق بيان ذلك؛ ويكفي السابق أن يكون قدوة لغيره، ومن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقد امتدح الله تعالى السابقين إلى الخيرات، وأمر بالمسابقة والمسارعة إلى مغفرته وجنته، وامتدح المؤمنين بقوله: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]،

(١) رواه البخاري ، كتاب: الزكاة ، باب: الاستعفاف عن المسألة (وفي بعض النسخ: باب من لم يقبل الصدقة) (١٤٧٢)، ومسلم ، كتاب: الزكاة ، باب: فضل التعفف والصبر والقناعة (١٠٣٥).

(٢) رواه مسلم ، كتاب الإمارة/الجهاد والسِّيَر ، باب ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠١).

(٣) تفسير القرآن الكريم - سورة الشعراء، لابن عثيمين (١١٢).

وذم فرعون ومن معه فقال: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩]، وبين مراتب الناس فقال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

والمرء هو الذي يتقدم أو يتأخر ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧]، وفي الحديث: «لَا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ حَتَّى يُؤَخِّرَهُمُ اللهُ»(١).

ومما يستفاد من هذه القصة: مشروعية ذب الإنسان عن عرضه، ورد التهم الباطلة عنه؛ ومن ذلك دفاع السحرة عن أنفسهم وتكذيبهم فرعون في دعواه، وكشفهم حقيقته وبواعثه على عقابهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩]، فهذه الآية نزلت في نفر من اليهود، فإنهم سألوا النبي ﷺ عمن يؤمن به من الأنبياء، فقال: «أُومِنُ باللَّهِ وما أُنْزِل إلينا، وما أُنْزِل إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأَسْباطِ، وما أُوتِي موسى وعيسى، وما أُوتِي النَّبيون مِن ربِّهم، لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ منهم، ونحن له مُسْلِمون». فلما ذكَر عيسى جحَدوا نبوتَه وقالوا: لا نُؤْمِنُ بَمَنْ آمَن به، فأنزل الله هذه الآية(٢).

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يذبون عن عرض النبي ﷺ ، ومنهم حسان رضي الله عنه، فكان يجيب بشعره ويهجو المشركين، ومن ذلك أن النبي ﷺ كان معتكفا في المسجد، فزارته صفية رضي الله عنها ليلا فحدثته، ثم قام معها ليقلبها لبيتها، «فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ ﷺ أَسْرَعَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ! فَقَالَا: سُبْحَانَ اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا، أَوْ قَالَ: شَيْئًا»(٣).

(١) رواه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب فضل التقدم إلى الصف الأول (٤٣٨).
(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٥٣٧/٨).
(٣) رواه البخاري ،كتاب الاعتكاف ، باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى الباب؟ (٢٠٣٥)، ومسلم ، كتاب السلام ، باب بيان أنه يُستحب لمن رُئيَ خاليًا بامرأة ليست محرمة أن يقول: هذه فلانة (٢١٧٥).

وعلى هذا فالمشروع ألا يورد المسلم نفسه مورد التهم، وإذا خشي أن يظن به سوءا أن يجلي الأمر، وأن يدفع عنه نفسه؛ لئلا يعود ذلك بالضرر عليه ولا على دعوته.

ومن كان محال قدوة فالأمر في حقه أعظم من غيره، فالمسلم الذي يعيش بين الكفار إنما ينظر إليه باعتبار الممثل للإسلام، فإما أن يكون داعية إليه بأخلاقه، أو يصد الناس عنه بأفعاله.

ومما يستفاد من هذه القصة: ضرورة التعلق بالله تعالى، ولا سيما عند اشتداد المحن، وأن يعلم أن الله عليم حكيم، فهو عالم بما يجري على المسلمين، ولو أراد سبحانه أن ينصرهم على أعدائهم لنصرهم، ولكنه سبحانه يبتلي من يشاء، ويصطفي من يشاء، ويتخذ من عباده شهداء، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤-٦].

وعند اشتداد المحن يتأكد حسن الظن بالله، فهي عبادة من أجل العبادات، والله عند حسن ظن عبده به، فليظن به ما شاء.

وقد أحسن السحرة الظن بالله تعالى، ورجوا مغفرته ورحمته، مع ما يعرفونه من ظلم فرعون وجبروته، وعزمه أن يوقع وعيده فيهم، بأن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف فيقطع إحدى اليدين، ويقطع الرجل التي تقابلها من الجهة الأخرى، مع صلبهم في جذوع النخل، وإطالة أمد العذاب عليهم.

ومثل ذلك ما جرى لأصحاب الأخدود، كيف ثبتوا على إيمانهم، ولم يثنهم ما توعدوا به من الإحراق بالنار أحياء إن لم يرجعوا عن دينهم، فصبروا حتى ارتقت أرواحهم لله تعالى.

ففي هذه القصص تثبيت للمؤمنين، وتذكير لهم ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]. فالدنيا زائلة فانية، والآخرة باقية، والنصر لا يلزم أن يكون محسوسا، بل الثبات والوفاة على الإسلام أعظم نصر.

ومما يستفاد من هذه القصة: أن العبرة بالخواتيم، ولذا سأل السحرة ربهم أن يتوفاهم مسلمين، ولا شيء يغيظ الكفار أعظم من هذا، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ولن يزال الصراع بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، ولا نجاة ولا فوز ولا فلاح إلا بأربعة أمور ذكرها الله تعالى في سورة العصر فقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

ومما يستفاد من هذه القصة: أن الهداية بيد الله تعالى؛ فهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وقد يدرك المرء الهداية في آخر لحظات حياته كما في قصة الغلام اليهودي، وقد يكون ألد الأعداء للدين، بل يعادي سيد المرسلين، ثم يهديه الله تعالى فيكون من أئمة الهدى ومصابيح الدجى، كما هو حال كثير من الصحابة الذين أسلموا.

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يتصور كثير من المسلمين هدايته، حتى قال عامر بن ربيعة عن عمر بن الخطاب: «وَاللهِ لَا يُسْلِمُ حَتَّى يُسْلِمَ حِمَارُ الْخَطَّابِ»[١]، وأسلم كثير من سادات المشركين الذين قاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم في كثير من الغزوات، وأهدر دماء بعضهم ثم أسلموا فعفى عنهم فأبلوا في الإسلام بلاء حسنا، كما في قصة عكرمة بن أبي جهل وغيره.

والله يقبل التائبين، ويغفر لهم، بل إذا أحسنوا بدل سيئاتهم حسنات، وهذا من فضل الله تعالى.

ولا خلاف في قبول توبة الساحر فيما بينه وبين الله تعالى، وأما قبول توبته في الدنيا ففيها روايتان عن الإمام أحمد، واستدل على استتابته بقبول الله تعالى لتوبة سحرة فرعون.

يقول ابن قدامة رحمه الله: «وهل يستتاب الساحر؟ فيه روايتان؛ إحداهما: لا يستتاب، وهو ظاهر ما نقل عن الصحابة...، والرواية الثانية: يستتاب، فإن تاب قبلت توبته؛ لأنه ليس بأعظم من الشرك، والمشرك يستتاب، ومعرفته السحر لا تمنع قبول توبته، فإن الله تعالى قبل توبة سحرة فرعون، وجعلهم من أوليائه في ساعة، ولأن الساحر لو كان كافرا فأسلم صح إسلامه وتوبته، فإذا صحت التوبة منهما، صحت من أحدهما، كالكفر، ولأن الكفر والقتل إنما هو بعمله بالسحر، لا بعلمه، بدليل الساحر إذا أسلم، والعمل به يمكن التوبة منه، وكذلك اعتقاد ما يكفر باعتقاده، يمكن التوبة منه، كالشرك، وهاتان الروايتان في ثبوت حكم التوبة في الدنيا، من سقوط القتل ونحوه، فأما فيما بينه وبين الله تعالى، وسقوط عقوبة الدار الآخرة عنه، فتصح، فإن الله تعالى لم يسد باب التوبة عن أحد من خلقه، ومن تاب إلى الله قبل توبته، لا نعلم في هذا خلافا»[٢].

(١) كتاب السير والمغازي لابن إسحاق (ص ١٨١)، المعجم الكبير للطبراني (٤٧).
(٢) المغني لابن قدامة (١٢/ ٣٠٣).

وليس المقصود تحرير الأقوال أو الخلاف في قبول توبة الساحر، وإنما الإشارة إلى أن مما استدل به على قبول توبة الساحر ما أخبر الله تعالى به من توبة سحرة فرعون، وكونهم من أولياء الله تعالى في يوم توبتهم.

وثمت فرق بين قبول توبة الزنديق ونحوه، وبين معاملته بالعدل الذي أوجبه الله تعالى، ولا تنافي بين هذا وبين معاملته بنوع حذر ويقظة، وعدم توليته ما قد يحصل فيه ضرر، كأسرار المسلمين، أو مواقع التأثير فيهم، فإن أبا بكر رضي الله عنه قبل توبة المرتدين ولم يستعن بأحد منهم مطلقا، فلما مضى وقت تبين فيه صدقهم وصدق توبتهم استعان بهم عمر رضي الله عنه بعد أن صار خليفة للمسلمين، وكلاهما خليفة راشد وإمام هدى يقتدى به.

ومما يستفاد من هذه القصة: أن الدخول في الدين يكون بالشهادتين، وبالبراءة من كل معتقد كفري كان عليه، فتوبة السحرة بإيمانهم برب العالمين، وبتصديقهم لما جاءهم به المرسلون، وبتبرؤهم مما كانوا عليه من الكفر، وهذه كلها دلت عليها الآيات، فإنهم صرحوا بإيمانهم برب العالمين، ثم أكدوا ذلك بالإبدال برب موسى وهارون؛ لئلا يتوهم أحد من الناس من لفظ الربوبية ما ادعاه فرعون، وزادوا ذلك بتوبتهم مما كانوا عليه من السحر والخطايا، فسألوا الله أن يغفر لهم خطياهم، وما أكرهوا عليه من السحر.

وقد استدل العلماء بقصة سحرة فرعون على أن التائب لابد أن يبرأ مما كان عليه من الباطل، فإن السحرة سجدوا لله تعالى، وبينوا أن سجودهم له سبحانه ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ وذلك لرفع التوهم أنهم سجدوا لفرعون الذي ادعى الربوبية، ثم زادوا هذا القصد بيانا بالإبدال من ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قولهم ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ لئلا يتوهم المبالغة في وصف فرعون بأنه رب جميع العالمين(١).

ومن الفوائد المهمة في هذا الباب: أن التوبة من الذنوب تتفاوت باختلاف الذنوب، فمن الذنوب ما لا يبقى له أثر في النفس، ويكون صاحبه أقوى إيمانا وثباتا بعد توبته، كما هو حال المشركين الذين أسلموا؛ فإنهم أعرف بالتوحيد وأشد تمسكا به وأشد بغضا لما كانوا عليه من الشرك.

ومن الذنوب ما له آثار يخشى من بقائها بعد الهداية، وهذا يستوجب حسن التعامل مع التائب، فالزنديق إذا تاب وقبلت توبته في الدنيا فإنه يعامل بالعدل التام ولكن لا يؤتمن كما

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٩/٥٣).

يؤتمن من عرف إيمانه وصدقه منذ نعومة أظفاره، ومن ابتلي بالفواحش ثم تاب فإنه يبعد عما يخشى منه الضرر عليه، فإن الشهوة قد تبقى علائقها في النفس ولا تزول؛ ولذا لما جاء شاب إلى النبي ﷺ يستأذنه في الزنا حاوره ﷺ ثم دعا له فقال: «اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ، قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ»(١).

فهذا الصحابي طهر الله قلبه ببركة دعاء النبي ﷺ له، وزال الأثر من نفسه فلم يعد يلتفت إلى شيء من ذلك؛ ومن ابتلي بالزنا ثم تاب فإنه قد يبقى في نفسه تعلق بالحرام، وقد يسهل انجرافه ووقوعه فيه، فيحتاج إلى مجاهدة عظيمة للنفس، ودوام تضرع لله تعالى، وقد استوفى بيان ذلك العلماء في كتبهم، كابن تيمية، وابن القيم، وغيرهما.

والتائب من السحر قد يضعف، وقد تتسلط عليه الشياطين، فمثله يحتاج إلى تقوية الإيمان، وصحبة أهل العلم والتوحيد، والابتهال إلى الله تعالى والتضرع له.

والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

(١) رواه أحمد (٢٢٢١١)، قال محققو المسند: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح.

الخاتمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هديه واقتفى أثره، وسلم تسليما كثيرا.. أما بعد:

فقد تبين في نهاية هذا البحث جملة من النتائج أجملها فيما يلي:

١- أن الإيمان إذا دخل القلب صلح معه الباطن والظاهر مباشرة، حتى إن الإسلام يعرف في وجه الرجل إذا أسلم، فإن كان إسلامه تاما صلح منه كل شيء؛ إذ بصلاح القلب يصلح الجسد كله.

٢- عناية الشرع بالإيمان؛ لأن الإيمان هو الباعث على الفعل أو الترك؛ ولذا علقت كثير من الأفعال على الإيمان بالله واليوم الآخر، مما يدل على قوة أثرها، فإن ضعف حصل خلل في العمل.

٣- التلازم التام بين الظاهر والباطن، ولذا لا يتصور أن يكون الإيمان في القلب دون أن يظهر ذلك على الجوارح، وكلما كان الإيمان أكمل تبعه اللسان وسائر الجوارح، والنصوص في هذا أكثر من أن تحصر.

٤- الإيمان هو الركيزة الأولى في تربية النشء، وفي إصلاح المجتمعات؛ فإن الإيمان أكبر وازع للإنسان على الفعل والترك؛ فمراقبته لله تعالى مع محبته إياه، وخوفه منه، تحمله على امتثال أوامره واجتناب نواهيه، في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله تجلية لهذا المعنى، وبيان لجزاء صاحبه يوم القيامة.

٥- معرفة الجزاء مما يعين الإنسان على التمسك بدينه، والصبر على ما يصيبه فيه، فيصبر على الطاعة، ويصبر عن المعصية، ويصبر على أقدار الله تعالى، وهذا من تمام الإيمان بالله تعالى.

وأما التوصيات فتتلخص فيما يلي:

١- التركيز على القصص في القرآن الكريم، وتقريبها لفئات المجتمع، من أطفال، وشباب، وكبار.

٢- تقريب كتب العقيدة للنشء ولغيرهم من فئات المجتمع بما يتوافق مع أفهامهم وقدراتهم.

٣- رفع الجهل عن عوام الناس ببيان ما يناقض التوحيد من السحر والشعوذة والكهانة وغيرها، حتى يميزوا بين الحق وما يضاده، ويتحصنوا بالعلم والإيمان ضد الشبهات والشهوات. والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

١. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، طبعة: عطاءات العلم - الرياض - دار ابن حزم - بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٤١هـ - ٢٠١٩م.

٢. أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، لناصر الدين البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، طبعة: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.

٣. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق ج٥: زهير جعيد، طبعة: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٤. التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر ابن عاشور، طبعة: الدار التونسية للنشر - تونس، طبعة: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٥. التسهيل لعلوم التنزيل (تفسير ابن جزي)، لأبي القاسم محمد بن أحمد، ابن جزي الكلبي، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، طبعة: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ.

٦. تفسير العز بن عبد السلام، لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، تحقيق: عبد الله الوهبي، طبعة: دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٧. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير القرشي، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، طبعة: دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض - السعودية، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٨. تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، طبعة: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة ١٤١٩ هـ.

٩. تفسير القرآن العظيم، لأبي الحسن علي بن محمد السخاوي، تحقيق: د موسى علي موسى مسعود، د أشرف محمد بن عبد الله القصاص، طبعة: دار النشر للجامعات، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.

١٠. تفسير القرآن الكريم – سورة الشعراء، لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ محمد صالح العثيمين، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ

١١. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، طبعة: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م

١٢. جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع: مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر - د عبد السند حسن يمامة، طبعة: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان - القاهرة، مصر، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

١٣. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، طبعة: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

١٤. زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، طبعة: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤٢٢ هـ.

١٥. صحيح البخاري «الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه»، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: جماعة من العلماء، ترقيم الأحاديث لمحمد فؤاد عبد الباقي، طبعة: دار طوق النجاة بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، وهي مصورة عن الطبعة السلطانية ببولاق مصر ١٣١١هـ.

١٦. صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، عام النشر: ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م، وهذه النسخة هي التي صورتها: دار إحياء التراث العربي ببيروت.

١٧. العذب النَّمِير من مجالس الشنقيطي في التفسير، لمحمد الأمين الشنقيطي، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، طبعة: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة الخامسة ١٤٤١ هـ / ٢٠١٩ م.

١٨. غرائب القرآن ورغائب الفرقان (تفسير النيسابوري)، لنظام الدين النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، طبعة: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ.

١٩. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٤ هـ.

٢٠. كتاب السير والمغازي، محمد بن إسحاق المطلبي، تحقيق: سهيل زكار، طبعة: دار الفكر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٢١. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لمحمود بن عمر الزمخشري، الناشر: دار الريان للتراث بالقاهرة - دار الكتاب العربي ببيروت - بيروت، الطبعة الثالثة - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

٢٢. الكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثعلبي)، لأحمد بن محمد الثعلبي، تحقيق: عدد من الباحثين (٢١ باحثاً)، أشرف على إخراجه: د. صلاح باعثمان، د. حسن الغزالي، أ.د. زيد مهارش، أ.د. أمين باشه، طبعة: دار التفسير، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

٢٣. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، طبعة: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ.

٢٤. مسند الإمام أحمد بن حنبل، للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، بإشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، طبعة: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٢٥. معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، للحسين البغوي، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، طبعة: دار طيبة الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

٢٦. المعجم الكبير، لسليمان بن أحمد الطبراني، طبعة: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، حقق بعض أجزائه (١٣، ١٤، ٢١ فريق من الباحثين بإشراف: د. سعد الحميد، وخالد الجريسي، بدون رقم وتاريخ الطبعة.

٢٧. المغني، لأبي محمد عبد الله بن أحمد ابن قدامة، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، د. عبد الفتاح الحلو، طبعة: دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع – الرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٢٨. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، لفخر الدين الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠ هـ.

٢٩. النبوات، لابن تيمية الحراني، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، طبعة: أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م.

٣٠. الوسيط في تفسير القرآن المجيد (التفسير الوسيط للواحدي)، لعلي بن أحمد الواحدي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.